مناهج المؤلّفين

أولاً : المنهج التاريخي .

ثانياً : المنهج الموضوعي :

١ . (دلائل النبوة) ، و(الشمائل المحمدية) .

٢ . الهجرة النبويّة ودورها في بناء المجتمع الإسلامي.

٣ . الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه.

٤ . (سيرة النبي) لشبلي نعمان .

٥ . (الرسول القائد) للواء الركن محمود شيت خطاب.

ثالثاً : المنهج التبشيري الاستشراقي :

١ . نقص معيب .

٢ . تطور الموقف الغربي .

٣ . أخطاء منهجيّة.

٤ . المذهب الذاتي .

٥ . مدرسة جديدة .

٦ . الإيمان بالغيب .

٧ . السيرة المحمديّة تحت ضوء العلم والفلسفة.

٨ . (حياة محمد) للدكتور هيكل.

٩ . المقياس الصحيح للحديث عنده حديث موضوع.

١٠ . موقفه من حديث شق الصدر.

١١ . وجوب التسليم بحديث شق الصدر.

١٢ . حديث آخر موضوع.

١٣ . الإسراء ووحدة الوجود.

١٤ . بطلان فكرة وحدة الوجود.

١٥ . إيجابيّات .

١٦ . مصير هذه المدرسة اليوم.

مناهج المؤلفين

وبعد أن أشرنا إلى مكانة السيرة عبر التاريخ، وخصائصها، ومصادرها، نجد أنفسنا أمام الحديث عن مناهج المؤلفين في السيرة النبويّة، فيما يلي:

أولاً: المنهج التاريخي

وهو المنهج الذي التزمه المؤلفون في السيرة، والذي اعتمده مؤرخونا، وعرفوه باسم (الحوليات)[1]، وهو ذكر الحوادث كما وقعت، من حيث الزمان، دون النظر إلى الوحدة الموضوعية بين السابق واللاحق.

وفيه بيان وجه من وجوه عظمة الرسول ﷺ، حيث كانت حياته - كما أسلفنا - صفحة عريضة من صفحات الجهاد - في الداخل والخارج - لإنقاذ البشرية، فانتشلها من ضياع، وانتاشها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبّط فيه من دياجير الظلام، وعقابيل الضلال، وواجه المشركين، واليهود، والنصارى، في معارك كثيرة..

وفيه - أيضاً - كثرة الآثار، مع كثرة عدم الالتزام بقواعد التحديث رواية ودراية، ورب رجل مجرح عند أهل الحديث ثقة عن أهل السير، وعللوا ذلك باختلاف الغرضين، حيث إن غرض المحدث ذكر الأحاديث التي هي مناط معرفة الحلال والحرام، وغرض المؤلف في السير والتواريخ ذكر أخبار ليست مناط الحلال والحرام غالباً، فمن ثم تساهلوا، ووجدت في كتبهم الروايات المرسلة، والمنقطعة، والمعضلة، والشاذة، والمنكرة، بل الموضوعة المختلقة على قلة، وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال:

---

(١) انظر: دراسة في السيرة: دكتور عماد الدين خليل: ٦ وما بعدها، مؤسسة الرسالة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

(ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي).

ومراده أنه يغلب فيها رواية المراسيل، والمنقطعات، والبلاغات، ونحوها، وإلا فقد صح فيها أحاديث كثيرة[1].

ثانياً: المنهج الموضوعي:

نذكر منه ما يلي:

١ـ (دلائل النبوة)، و(الشمائل المحمدية):

كما سبق أن ذكرنا في مصادر السيرة..

وظهرت دراسات موضوعية.. منها:

٢ـ (الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامي):

وهي دراسة تحليليّة في ضوء الكتاب والسنة، سبق أن قدمتُها في إذاعة القرآن الكريم صباحاً من دولة الكويت طيلة ثلاثة أشهر، وطبعت بعد ذلك في كتاب، ونفدت طبعاته، في الكويت، والآن تحت الترجمة:

إلىٰ المهاجرين في سبيل الله، أنصار الحق ودعاته، وجنده وحماته، الذين يرجون الشهادة في سبيل الله!

إلىٰ أصحاب البصائر والأبصار، الذين يتطلّعون إلىٰ آفاق النور والإخاء، والإيثار والفداء، والبذل والعطاء، والحب والنقاء، والود والصفاء، ليعيشوا في أجواء الروح الرفافة الندىٰ والظلال!

إلىٰ الإخْوة الأحبّة، جند الحق، الذين صبروا وصابروا ورابطوا، وزادتهم المحن منحاً وثباتاً!

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: ١: ٣٤.

أصدق الناس قولاً، وأجمعهم لبّاً، وأقواهم عزماً، الجهاد شعارهم، واليقين دثارهم، لا تتغيّر بهم في خشية الله عادة، ولا تملكهم في مخافته هوادة!

إلى الأُخُوّة الزكيّة، الصافية النقيّة، والمحبّة النديّة، والمودّة الرضيّة، والنفحة العلويّة، والألفة القدسيّة، التي تنشيء في القلب إدراكاً كاملاً، ونوراً شاملاً، ونبضاً متصلاً، وحياةً مباركةً، هي سراج ما بطن، وملاك ماعلن، تنطف نوراً كأنها قناع رحمة الله!

بيّنت فيه معالم الهجرة من أرض لفّها الظلام والجحود، وخيّم عليها الظلام والكنود، إلى أرض سطع فيها نور الإسلام!

مبدأ تاريخ خير أمة أخرجت للناس، والحدّ الفاصل بين الحق والباطل، والخير والشر!

تضع يدك على معالم الطريق، كلما تمعّنت في أطيافها قرأت شجناً، واستعرضت جهاداً، وتبينت استشهاداً، ولمست صدقاً، وأبصرت يقيناً!

ومن ثم فأنت غاضب على الباطل، كاره له، وأنت ثائر على الظلم بكل ما أوتيت، حتى الحياة تجود بها طائعاً مختاراً، إذا شاهدت من خلال أدوارها مانزل بالمؤمنين الصادقين، وأنت في صحبة مباركة طيّبة لهم، تعايش أنفاسهم، وتبصر جهادهم، وتبهرك مواقفهم، وهم يرجون الرضى والرضوان.. وهل هناك أسمى من الرضى والرضوان؟!

اللهم! أعطنا ولا تحرمنا!

ولا تلبث أن تقول معي: عونك اللهم!

وهذه المعالم حين تستقر في القلب المؤمن، تندفع بصاحبها لتحقيق ذاتها في عالم الواقع، وتتمثّل حركة فاعلة في تكوين الشخصيّة الإسلاميّة، وبناء المجتمع الإسلامي، وفق معالم بناء الدولة الإسلامية في حياة الرسول ﷺ!

٣ ـ(الرسول ﷺ واليهود وجها لوجه):

وهي دراسات سبق أن قدمتُها ـ أيضاً ـ في إذاعة القرآن الكريم صباحاً من دولة الكويت ـ أيضاً ـ وأعيدت إذاعتها في البرنامج العام مساء، طيلة سبعة أشهر، ذكرتُ فيها ما يجب أن يعرفه المسلمون عن اليهود!!

وطُبعت في عشرة كتب في دار الوفاء بالمنصورة.. هي:

الأول: أسطورة الوطن اليهودي.

الثاني: الفكر اليهودي.

الثالث: موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ.

الرابع: الطبيعة اليهوديّة.

الخامس: التآمر اليهودي علي حياة الرسول ﷺ.

السادس: اليهود والخيانة.

السابع: القضاء على اليهود عسكريّاً.

الثامن: محاكمة اليهود.

التاسع: الخطر اليهودي.

العاشر: معالم النصر على اليهود.

انطلاقاً من أنه ليس لنا من سبيل تجتمع عليه وجهات نظر المؤمنين إلا التأسي بموقف الرسول ﷺ من اليهود وموقفهم منه، من خلال معرفة سماتهم عبر تاريخهم وفكرهم وموقفهم من الرسالة والرسول ﷺ..

ومن خلال الغزوات الخاصة باليهود، حيث كان لهم في شبه الجزيرة ماكان، ولم يتبين عداؤهم في أول الأمر سافراً، ولكن ما لبثوا أن كشفوا عن سماتهم، وأعلنوا الحرب والعدوان، وواجههم الرسول ﷺ.. حتى كان القضاء عليهم عسكريّاً!

وهذا الموقف هو وحده الذي يجب أن نؤمن به جميعاً، وندعو إليه، ونتجمع في رحابه، حتىٰ تعود إلينا سيرتنا الأولىٰ، ويتنزّل علينا وعد الله بالنصر:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

(آية ٢١ سورة الأحزاب)

٤. (سيرة النبي) لشبلي نعماني:

وقد كتب شبلي نعماني كتابه(سيرة النبي) الذي بدأه(١٨٥٧ ـ ١٩١٤م) في خمسة مجلدات، وأتمه سليمان الندوي، فأصبح في سبعة مجلدات:

الأول والثاني: ترجمة حياة النبي ﷺ، مع دراسة عن الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، ويعدّ هذا الكتاب خاتمة أعمال المرحوم شبلي، وهو الذي كتب معظم فصوله، وكان حريصاً علىٰ الالتزام الدقيق بالنصوص الصحيحة، والرد علىٰ الشبهات التي أثارها غير المسلمين عن الإسلام ورسوله!

هذا في أسلوب رائع أنيق، حتىٰ أن بعض فصول المجلد تعتبر ـ كما يقول مسعود الندوي ـ كأحسن ما كُتب باللغة الأردية.

الثالث: خاص بالمعجزات، كتبه والأجزاء التالية، سليمان الندوي، وله مقدمتان علميتان من الوجهتين الفلسفتين: القديمة والحديثة، أثبت فيهما إمكان المعجزات، وعدم معارضة العلوم العقلية لها.

الرابع: يبحث في منزلة النبوة، والفرق بينها وبين منازل الإصلاح والتجديد والزعامة، ثم يبحث في العقائد، مستنداً إلىٰ الكتاب والسنة، في مزج دقيق بين علومها وأسرارها.

الخامس: في العبادات.

السادس: في الأخلاق.

السابع: في المعاملات.

وكل منها موسوعة في موضوعه.

وجاء في المقدمة: إن الواجب الأسمىٰ والخدمة الكبرىٰ التي تقدم إلىٰ الإنسانية أن تجدّد وتضبط أخلاقيّات الناس وثقافتهم، والوسيلة المعتادة لذلك هي العظات، والوسيلة الحديثة هي تأليف الكتب ذات المستوىٰ الرفيع في السلوك ونشرها بين الناس، وهناك وسيلة أخرىٰ هي إكراه الناس علىٰ غرس الفضائل، ولكن أفضل الطرق وأصحها وأكثرها عمليّة، ليست الحديث ولاالكتابة ولا الإكراه، ولكن في ظهور شخص هو التصوير العام للفضائل، شخص تنعكس فيه الفضائل عمليّاً، وتعادل كل حركة من شفته عمل آلاف الكتب، وكل إشارة من يديه كأنها أمر ملكي، إن الفضائل التي تبدو في دنيانا هي انعكاسات من هؤلاء الرجال. . أما جميع العوامل الأخرىٰ فلا تعدو أن تكون طلاء وزخرفة في صرح الحضارة[1].

ويقول: ولكن هؤلاء الذين ظهروا قبل الرسول محمد ﷺ بعامة كانوا نماذج لفضائل معيّنة، علىٰ سبيل المثال:

مدرسة المسيح كانت للتحمّل والصبر والسلام والتسامح والتواضع، ولامكان للصفات الرفيعة اللازمة للإدارة والحكم.

بينما لا مجال فيما جاء عن نوح وموسىٰ للتسامح العام.

من أجل ذلك كانت الحاجة إلىٰ قائد جديد في كل مرحلة من مراحل الإنسانيّة. . ودائما كان هناك انتظار لجديد يكمل به الدين، القائد الذي يستطيع أن يرفع سيفه، وأن يعيش معتكفاً أيضاً، قائد يستطيع أن يمارس حياة الحاكم

---

(١) الإسلام والعروبة في عالم متغير: الدكتور عبد العزيز كامل: ٤٧: كتاب العربي: الكتاب الثاني والعشرون: ١٩٨٩م نقلاً عن (سيرة النبي): ١: ١ـ٢ ط. الإنجليزية.

والفاتح، كما يمارس حياة المسكين، والذي يستطيع أن يكون حاكم الدنيا وتالياً لأسماء الله الحسنى، والذي يستطيع أن يعيش حياة الفقر بالرضى وحياة الغنى بالقلب الكريم، هذا الرسول الكامل بين الخالق والكون، هذه الشخصية المحيطة، هذا التصوير الحيّ لكلمات الله هو الذورة العليا في خلق الله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

(آية ٣ سورة المائدة)

وليس هناك من شيء خالد في دنيا الفناء، ومن أجل ذلك لن تعمر فيها هذه الشخصية الكاملة إلى الأبد. من أجل ذلك كان من الضروري الاحتفاظ بصورتها الكاملة، كل كلمة منها، كل إشارة، كل لمحة من لمحات وجودها.. حتى نستطيع أن نفيد منها في كل مرحلة من مراحل الحياة عندما نحتاج إليها!

ومن الغريب أن الصورة الكاملة لغير محمد ﷺ من الأنبياء غير محفوظة - كما أسلفنا -، فمن حياة المسيح التي استمرت ثلاثا وثلاثين سنة، نعرف الأحداث المرتبطة، بالأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته.. والتوراة الموجودة هي المصدر الوحيد للقليل الذي نعرفه عن موسى[1]!

وبعد أن تحدث عن الفروق المنهجية بين علماء الحديث وعلماء المغازي، قال: ليس بين أيدينا كتاب عن حياة الرسول ﷺ اعتمد اعتماداً كاملاً على الحديث الشريف الصحيح وحده[2]!

وقال: إلى يوم الدين لن يستطيع أحد أن ينافس المسلمين في فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث في حياة الرسول، بطريقة دقيقة وواعية!

وقد سبق ذكر ذلك في حديثنا عن خصائص السيرة النبويّة، وبيان أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل!!

---

(١) المرجع السابق، نقلاً عن: ١: ٢ - ٣ سيرة النبي ط. الإنجليزية.

(٢) المرجع السابق، نقلاً عن: ١: ٨ هامش.

وفي رحلة منهجية استغرقت خمسا وثمانين صحيفة قبل أن ينتقل إلى دراسة التأليف الغربي عن السيرة، تابع ما عند الغرب من اتجاهات في كتابة السيرة، مركزاً على القرن السابع عشر وما بعده، وأورد قوائم بهذه المؤلفات، ذكر منها سبعة عشر مؤلفاً في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين(١٨١٥ ـ ١٩٠٩م).

ولخص النقاط التي ركز عليها الكتاب الأوربيون في الافتراء على حياة المصطفى ﷺ في:

١ ـ أنه تحول من النبوة في مكة، إلى الملك والقوة والسيطرة في المدينة، بكل ما يحمل ذلك من إشعال الحروب والقتل والردع وإراقة الدماء.

٢ ـ تعدد الزوجات والميل إلى النساء.

٣ ـ نشر الإسلام بالقوة.

٤ ـ إقرار الرق وممارسته.

٥ ـ اتباع الأساليب الدبلوماسية كما يمارسها الحكام الدنيويون.

وقد ناقش الكتاب كل هذه الافتراءات في مواضعها، ورد عليها بكل إفاضة.

وعرض الأسس التي أقام عليها جمع وتقسيم كتابه في:

١ ـ ما جاء في القرآن الكريم، وهو المرجع الأعلى في السيرة.

٢ ـ ما جاء في الأحاديث الصحيحة، ورأى أن خطأً كبيراً حدث نتيجة البحث عن الموضوعات تحت عناوين معيّنة، فإذا لم يجدوا ما لوا إلى الحديث الضعيف فاستعانوا به، بينما في كتب الحديث تفاصيل كثيرة جاءت كأنها حقائق ثانوية ضمن موضوع أساسي، ويمكن ـ مع الدراسة الممعنة ـ جمع كل هذه التفاصيل الدقيقة والصحيحة عن حياة

المصطفىٰ ﷺ من الكتب الستة!

فميزة (سيرة النبي) أن شبلي قد استطاع أن يجمع فيه معظم التفاصيل من كتب الحديث، وأعاد تبويبها من جديد، وهي التي لم تجتذب أنظار مؤلفين سابقين!

٣ـ وفيما يتعلق بالأحداث اليوميّة اكتفىٰ بما جاء به ابن سعد في طبقاته، وابن هشام في السيرة، والطبري في التاريخ، وإذا ما كان لحادث قيمة كبيرة قام بتحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً!

٤ـ إعداد كل المواد السابقة وتحقيقها!

وقسم كتابه بعد هذا إلىٰ خمسة مجلدات، رأينا في التنفيذ أنها عدلت إلىٰ سبعة، وعزم علىٰ طبع أي جزء منها بعد إنجازه، دون تقيّد بالترتيب الموضوعي للأجزاء، وإذا كانت وفاته عام ١٩١٤م فإن الجزء الأول قد صدر عام ١٩١٨م والثاني عام ١٩٢٠م ثم توالت الأجزاء.

يقول سليمان الندوي في مقدمة المجلد الثاني: ٢: ٢:

عندما جاءت مخطوطة الكتاب إليّ ـ يقصد الجزءين: الأول والثاني بعد وفاة شبلي ـ أحسست أنها تحتاج إلىٰ عدة فصول، بغيرها يظل الكتاب ناقصاً، ولم تكن عندي الشجاعة لأن أفكر في إضافة أي شيء إلىٰ ما تركه المؤلف، ومرت فترة من التردّد الطويل، ثم عزمت علىٰ كتابة الفصول التي يحتاج إليها الكتاب، وبعد أيام عثرت علىٰ مجموعة من المذكرات كتبها المؤلف قبل وفاته بخمسة شهور، كانت المذكّرات الأخيرة هي رؤوس الموضوعات، ولم يكن لسروري حدود عندما قرأت المذكّرات، فوجدتها الفصول التي يحتاج إليها الكتاب، وأنها تطابق ما أحسست أن الكتاب محتاج إليه فكتبته، ولعلها كانت إشارة من الغيب له أن يضع هذه الخطوط لتكون عوناً لي علىٰ السير!

ولقد كان الجزء الخاص بأحوال المصطفىٰ غير كامل، وفي بعض الصفحات

فراغات أكملها سليمان، وأضاف هوامش، وميز ذلك عن الأصل.

وصفوة القول: ان المجلد الأول يُعنى بالمنهج وما قبل الإسلام، وبالسير على أساس من التسلسل التاريخي، وحياة الرسول ﷺ في مكة والمدينة ومغازيه.

بينما يدرس الثاني السنوات الثلاث الأخيرة من حياة الرسول ﷺ، مع عناية بنشر الدعوة، ورسله ورسائله، واستقبال الوفود، وإقامة المجتمع الجديد، ونظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ثم يعرض الإسلام كدين: عباداته، ومعاملاته، وحلاله، وحرامه، ويدرس العام الأخير من حياة الرسول، وحجة الوداع.

وبعد أن يذكر وفاة الرسول ﷺ، يخصص فصولاً لما ترك وراءه، وأخلاقه، ونظام حياته اليومية، ومستشاريه، والرسول ﷺ كخطيب(كيف يخطب. طبيعته. عظاته. تأثيرها) ثم عباداته وأخلاقه وزوجاته وأبناؤه وحياته المنزلية.

ويستغرق المجلدان معا نحو تسعمائة صفحة في الطبعة الإنجليزية.

وهو كتاب أرجو أن يقدّم بجميع اللغات إلى المسلمين وغيرهم!

٥ـ (الرسول القائد) للواء الركن محمود شيت خطاب:

يدل عنوانه على موضوعه، يقول في مقدمته:

فكّرت في وضع هذا الكتاب، بعد أن قرأت كثيراً من المؤلفات العسكريّة الباحثة في تاريخ حروب القادة العظام، الذين لمعت أسماؤهم قديماً وحديثاً.

لقد أبرزت تلك المؤلفات بكل وضوح أعمال أولئك القادة، ووصفت معاركهم بتسلسل منطقي سهل، ووضّحت تلك المعارك بالخرائط والمخططات والأشكال، وأظهرت الدروس المفيدة منها، فأضفت بذلك كله الخلود على حياة أولئك الرجال.

وعدت لأقارن بين هذا الأسلوب في البحث، وبين أسلوب المؤرخين عندنا في الحديث عن معارك قادة المسلمين، فعرفت كيف أضاء الأسلوب الأول معالم الطريق للباحثين، وحقق قيمة جديدة لأعمال بعض القادة، بينما طمس الأسلوب الثاني أعمالاً خالدة تستحق أعظم التقدير والإعجاب.

لقد قرأت أكثر كتب السيرة في تدبّر وإمعان، وحاولت أن أستشفّ منها كل نواحي العظمة التي تتسم بها شخصية الرسول ﷺ، ولكني وجدت أن عبقريّته العسكريّة التي لا تتطاول إليها أيّة عبقرية أخرىٰ لأيّ قائد في القديم أو الحديث، تكاد تكون متوارية محجوبة لم يتح لها من يكشف أسرارها، ويجلي عظمتها، بأسلوب حديث يجنح إلىٰ الكشف والتحليل، وإبراز المواهب النادرة، خاصة من عسكري يستطيع أن يلم بنواحي العظمة العسكريّة التي تكمن فيها، ويظهرها جليّة للعيان، ومن هنا بقي الجانب العسكري من حياة الرسول ﷺ يشوبه الغموض حتىٰ اليوم..

إن المسلم حقّاً هو الذي يقدّر الرسول ﷺ حق قدره، فيعترف بأن كفاية الرسول ﷺ قائداً متميزاً، وكفاية أصحابه جنوداً مميزين، هي التي أمّنت لهم النصر العظيم.

أما أن نستند علىٰ الخوارق وحدها في الحرب، ونجعلها السبب المباشر لانتصار المسلمين، فذلك يجعل هذا النصر لا قيمة له من الناحية العسكرية، بالإضافة إلىٰ مخالفة الأمر بالأسباب، وإعداد القوة ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلاً.

إن أعمال الرسول ﷺ، ومنها العسكرية، سنة متبعة، في كل زمان ومكان، فهل يبقىٰ أتباعه ينتظرون الخوارق لينتصروا علىٰ أعدائهم، أم يعدّون ما استطاعوا من قوة، كما قرر القرآن الكريم، لينالوا هذا النصر؟

إن سيرة الرسول ﷺ العسكرية، تثبت بشكل جازم لا يتطرق إليه الشك، أن انتصاره كان لشجاعته الشخصيّة، وسيطرته علىٰ أعصابه في أحلك المواقف، ولقراراته السريعة الحازمة في أخطر الظروف، ولعزمه الأكيد في

التشبّث بأسباب النصر، ولتطبيقه كل مبادىء الحرب المعروفة في كل معاركه، تلك العوامل الشخصيّة التي جعلته يتفوق على أعدائه في الميدان، ولو لم تكن تلك الصفات الشخصيّة المدعومة بقوة الإيمان بالله، لما كُتِب له النصر.

ويمتاز الرسول ﷺ عن غيره من القادة في كل زمان ومكان بميزتين مهتمين:

الأولى: أنه كان قائداً عصاميّاً.

الثانية: أن معاركه كانت للدفاع عن الدعوة، ولحماية نشر الإسلام، ولتوطيد أركان السلام، لا للعدوان والاغتصاب والاستغلال..

وقال: على ذلك يمكن تقسيم حياة الرسول ﷺ من الناحية العسكرية إلى أربعة أدوار:

الأول: دور الحشد.

الثاني: دور الدفاع عن العقيدة.

الثالث: دور الهجوم.

الرابع: دور التكامل.

أما دور الحشد: فمن بعثته إلى هجرته إلى المدينة المنورة، واستقراره هناك، وفي هذا الدور اقتصر الرسول على الحرب الكلامية، يبشر وينذر، ويحاول جاهداً نشر الإسلام، وبذلك كون النواة الأولى لقوات المسلمين، وحشدهم في المدينة المنورة بالهجرة إليها..

وأما دور الدفاع عن العقيدة: فمن بدء الرسول ﷺ بإرسال سراياه وقواته للقتال، إلى انسحاب الأحزاب عن المدينة بعد غزوة الخندق، وبهذا الدور ازداد عدد المسلمين، فاستطاعوا الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم الأقوياء..

وأما دور الهجوم: فمن بعد غزوة الخندق إلى ما بعد غزوة حنين، وبهذا الدور انتشر الإسلام في الجزيرة العربيّة كلها، وأصبح المسلمون قوة ذات اعتبار

وأثر في بلاد العرب، فاستطاعوا سحق كل قوة تعرضت للإسلام.

وأما دور التكامل: وهو من بعد غزوة حنين إلى أن التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، فقد تكاملت قوات المسلمين بهذا الدور، فشملت شبه الجزيرة العربيّة كلها، وأخذت تحاول أن تجد لها متنفساً خارج شبه الجزيرة العربيّة، فكانت غزوة تبوك، إيذاناً بمولد الدولة الإسلامية الكبرى.

بهذا التطور المنطقي، تدرج الرسول القائد العصامي بقواته من الضعف إلى القوة، ومن الدفاع إلى الهجوم، ومن الهجوم إلى التعرّض، وبذلك بزّ كل قائد في كل أدوار التاريخ، لأنه أوجد قوة كبيرة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد من لا شيء.

تلك هي **الميزة الأولى** للرسول القائد ﷺ.

والميزة الثانية لقيادته هي: أن معاركه كانت حرب فروسية بكل معنى الكلمة، الغرض منها حماية نشر الإسلام، وتوطيد أركان السلام، فلم ينقض عهداً، ولم يمثّل بعدو، ولم يقتل ضعيفاً، ولم يقاتل غير المحاربين..

وقال: إن مهمة القائد في العصور الغابرة كانت أصعب من مهمته في العصر الحديث، لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية، كانت العامل الحاسم في الحروب القديمة، بينما يسيطر القائد في الحروب الحديثة على قواته الكبيرة بمعاونة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه في مهمته، ويراقبون تنفيذ أوامره في الوقت والمكان المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بوسائط المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية، ورادار طائرات وأقمار صناعية ووسائط آلية..

وقال: إن حياة رسول التوحيد والجهاد عليه أفضل الصلاة والسلام هي أسوة حسنة للمسلمين في كل زمان ومكان.. وإن النبيّ العربيّ صلوات الله عليه وتسليمه يطالبكم اليوم جميعاً، أن تجاهدوا من أجل الوحدة، وتتوحّدوا من أجل الجهاد.

وهو كتاب أرجو أن تخرج الأحاديث الواردة فيه، وأن يجد سبيله إلى الكليّات الحربيّة في البلاد الإسلاميّة!

ثالثاً: المنهج التبشيري الاستشراقي:

والمؤلفات في سيرة الرسول ﷺ من عهد الرسالة إلى يومنا هذا، في مختلف الأوطان الإسلامية وغير الإسلامية، تعدّ بالألوف، وما أُلف بالأردية ـ وحدها ـ في موضوع السيرة يبلغ ألفاً إن لم يزد عليه، مع أنها لم تصر لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر ـ كما يقول المرحوم سليمان الندوي ـ[1]، وحين ننظر إلى من ألف في السيرة ممن لا يؤمنون بالرسول ﷺ، ولا يوقنون برسالته، نجد كثيرين في الهند، على اختلاف مللها، قد ألفوا في السيرة، ونجد المبشرين والمستشرقين قد كتبوا في السيرة، إرواء لظمئهم العلمي، أو محاولة للطعن في الكثير الغالب!!

وفي مجلة (المقتبس) التي كانت تصدر في دمشق قبل نصف قرن تقريباً إحصاء لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبيّة بلغ نحو(١٣٠٠) ثلاثمائة كتاب وألف كتاب، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الأوروبية في السيرة النبوية خلال أربعين سنة بعد ذلك الإحصاء الذي نشرته مجلة (المقتبس) لأربى على ذلك كثيراً!!

١ ـ نقص معيب:

وإن مرجليوث الذي كان أستاذا للغة العربية في جامعة أوكسفورد أصدر في سنة ١٩٠٥م كتابه (محمد) وجعله حلقة في سلسلة(عظائم الأمم) وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على رسول الله ﷺ، بل لعله لم يؤلف كاتب بالإنجليزية كتاباً أشدّ تحاملاً على الرسول ﷺ مما جاء في هذا الكتاب، وقد حاول

---

(١) الرسالة المحمدية: ٩٦ وما بعدها بتصرف.

مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة، وأن يشكك في أسانيدها، ولم يأل جهداً في نقض ما أبرمه التاريخ، ومعارضة ماحققّه المحقّقون من المنصفين، لكنه مع كل هذا لم يتمالك عن الاعتراف في مقدمة كتابه بأن الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر أسمائهم، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوّئه مجلساً بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية!

وقد كتب جون ديون بورت سنة ١٨٧٠م كتاباً بالإنجليزية في السيرة المحمدية عنوانه: (اعتذار من محمد والقرآن) والذي يقرأه يخيّل إليه أنه كتبه بنزعة الإخلاص والإنصاف، يقول في مقدمته:

لا ريب أنه لا يوجد فى الفاتحين والمشرعين، والذين سنوا السنن، من يَعْرِفُ الناسُ حياتَهُ وأحواله أكثر تفصيلاً وأشمل بياناً، مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله!!

وألقى ريورند باسورث سميث Basworth Smith عضو كلية التثليث في أكسفورد سنة ١٨٧٤م محاضرات عن(محمد والمحمديّة) في الجمعية الملكيّة لبريطانيا، طُبعت كتابا ـ كان أيضاً ـ أشدّ تحاملاً على الرسول ﷺ!

وإذا أراد الإنسان أن يفهم الأحداث ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس والحياة[1]!

ـ مقومات النفس البشرية: روحيّة وفكريّة وحيويّة.

ـ ومقومات الحياة الإنسانية: معنويّة وفطريّة ومادّيّة.

وأن يفتح روحه وفكره للحادثة، ويستجيب لوقوعها في مداركه، ولا يرفض شيئاً عن استجاباته لها إلا بعد تحرّج وتمحيص ونقد!

وإذا كان يتلقّاها ـ بادئ ذي بدء ـ وهو معطّل الروح أو الفكر أو الحس، عن

---

(١) في التاريخ: فكرة ومنهاج: ٢٧ وما بعدها بتصرف، والهجرة النبوية: ٢٧ وما بعدها.

عمد أو غير عمد، فإن هذا التعطيل المتعمّد أو غير المتعمّد يحرمه استجابة معيّنة للحادثة التاريخيّة، وعنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها خاطئاً أو ناقصاً!

هذه الاستجابة الناقصة، هي أول ظاهرة تتّسم بها بحوث هؤلاء عن الموضوعات الإسلاميّة، وبخاصة السيرة النبويّة، ذلك أن هناك عنصراً ينقص طبيعة هؤلاء بصفة عامة، لإدراك الحياة الإسلامية، بصفة خاصة (عنصر الروحية الغيبية) وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات الماديّة، والطريقة التجريبيّة على وجه أخص، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلاميّة ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام، كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الاستشراقية الحديثة!

وقد ذكرت (عنصر الروحية الغيبية) على وجه الخصوص، لأنه أظهر مايبدو فيه هذا النقص في الطبيعة عند هؤلاء، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين، وهي شتى وكثيرة!

هذه المقدمة لابد منها لبيان ما في تناول هؤلاء للسيرة النبوية من:

- نقص طبيعيّ في الإدراك والتقدير.
- ونقص طبيعيّ في الفهم والتعبير.
- ونقص طبيعيّ في التفسير والتصوير.

ذلك أن انعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه، لابد أن يقابله نقص في القدرة على النظر إلى الحادثة من شتّى جوانبها.. وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم أمر لا يؤمن معه سلامة الحكم، أو على الأقل لا يسلم على علاته!

هذا النقص يعدّ عيباً في منهج العمل ذاته، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة أو تصوير حالة!

ومن ثم فالمنهج التبشيري الاستشراقي في البحث في السيرة النبوية يسبّب تعطيل أحد عناصر الاستجابة، سواء كان ناشئاً عن الطبيعة الغربيّة ذاتها، وملابسات حياتها البيئيّة والتاريخيّة، أو ناشئاً عن تعمد المؤرخ تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معيّن في الدراسة.. هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلاميّة، ويتجلىٰ عدم الصلاحية أوضح وأقوىٰ في جانب الدراسات التي تتعلق بالرسالة والرسول ﷺ!

وثمة سبب معيب في قيمة الدراسات التاريخيّة عند هؤلاء للحياة الإسلاميّة!

ذلك، أنه لا يخفىٰ أن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع!

والأوروبّي بطبيعة الحال ميّال إلىٰ اعتبار أوروبّا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلىٰ الحياة والناس والأحداث!

وإذا كان بديهيّاً أن أوروبّا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، والأوروبّي لا يملك اليوم أن يتخلّص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلىٰ الماضي.. أدركنا مدىٰ انحراف الزاوية التىٰ ينظر بها الأوروبّي للحياة الإسلاميّة، وبخاصة السيرة النبويّة.. ومدىٰ أخطاء الرؤية.. ومدىٰ أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعيّنة!

ذلك كله علىٰ افتراض النزاهة العلميّة المطلقة، وانتفاء الأسباب التي تؤثّر علىٰ هذه النزاهة!

فإذا نحن وضعنا في الحساب ما لابدّ من وضعه، وما لا يمكن إغفاله من أسباب ملحّة قاهرة عميقة، طويلة الأجل، متجدّدة البواعث، تؤثّر في نظرة الأوروبّي، للرسالة والرسول، وللحياة الإسلاميّة، وللعالم الإسلامي:

- من اختـــلاف فى العـقيـــدة!
- إلى كـراهيـة للرسـالة والرسـول!
- إلى ذكـريات تاريخيـــة مريرة!
- إلى صراع سياسي واقتصادي واستعماري!
- إلى نزوات شـخـصيـــة والتـواءات فكريـــة!
- إلى آخر تلك البواعث القديمة والمتجددة أبداً!

إذا نحن وضعنا في الحساب ذلك كله - ولابد أن نضعه لنضع الأمور في نصابها - وأضفنا إليه خطأ الرؤية . . أمكن أن نتعرف حقيقة الدراسات التبشيريّة الاستشراقيّة في الفكر الإسلامي - وبخاصة في السيرة النبويّة - وأن نتحرز التحرز العلمي الواجب . . لا من قبول هذه الدراسات على علاتها فحسب . . بل من قبول المنهج الذي قامت عليه، ومحاولة اتباعه في دراساتنا الإسلاميّة على وجه خاص!

٢ - تطور الموقف الغربي:

وبدأ الموقف الغربي من الرسول ﷺ يتشكل في إطار ديني صرف، مترع بالتعصب والتشنج والانفعال، مليء بالحقد والغضب والكراهية، تحيطه جهالة عمياء، متعمدة حيناً وغير متعمدة أحياناً - كما يقول الدكتور عماد الدين خليل -[1] جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا عليه الصلاة والسلام سدّاً يصعب اختراقه، والنتيجة ليست أبحاثاً تاريخية علميّة أو موضوعيّة بحال!، إنما ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب، مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانيّة باتجاهاتها كافة!، ومارسها رجال علمانيّون لاعلاقة لهم بالكنيسة من قريب أو بعيد، وقد استمر هذا التيّار حتى العصر الراهن!!

وذكر من أقوالهم ما يدل على ذلك!!

---

(١) المستشرقون والسيرة النبوية : دكتور عماد الدين خليل : ١٥ وما بعدها بتصرف، ط. دار الثقافة، الدوحة ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

ثم قال: وقد كان للنتائج التي تمخّضت عنها الحروب الصليبيّة طعم مرّ في حلوق الغربيّين ما ذاقوه أبداً!، وإن ليوبولد فايس (محمد أسد) يتحدث عن التجربة التي استحالت معضلة في مناهجهم يصعب تجاوزها فيقول:

فيما يتعلق بالإسلام، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلميّة، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه جسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسيّاً من التفكير الأوروبي. والواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى، يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيّين من الوثنيّين، غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر!!

ثم قال: أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعيّة تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبيّة، بكل ما لها من ذيول، في عقول الأوروبيّين[1].

٣ـ أخطاء منهجيّة:

ونستطيع أن نضع أيدينا على عدد من الأخطاء والثغرات المنهجيّة لهذه البحوث الاستشراقيّة، ونشير هنا بالتحديد، إلى ثلاث من هذه الثغرات:[2]

الأولى: المبالغة في الشك، والافتراض، والنفي الكيفي، واعتماد الضعيف الشاذ!

---

(١) المرجع السابق، وانظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: دكتور محمد البهي: ٥٠٧ـ٥٢١، والإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد: ٦٠ وما بعدها.

(٢) انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق: ١٩ وما بعدها، وانظر دخل التفكير وسوء التقدير في: دائرة المعارف الإسلامية: ١٢: ٤٤١ وما بعدها.

الثانية: إسقاط الرؤية الوضعيّة، العلمانيّة، والتأثيرات البيئيّة المعاصرة على الوقائع التاريخيّة!

الثالثة: رد معطيات السيرة إلى أصول نصرانيّة أو يهوديّة!

٤ ـ المذهب الذاتي:

وفي القرن التاسع عشر ظهرت طرائق كثيرة متنوعة في كتابة التاريخ وتدوينه، إلى جانب الطريقة الموضوعيّة، أو ما يسمونه بالمذهب العلمي، وقد تلاقى معظم هذه المذاهب ـ كما يقول الدكتور البوطي ـ[1] فيما أطلق عليه اسم(المذهب الذاتي)، ويعد(فرويد) من أكبر الدعاة إليه، والمتحمسين له!

ولا يرى أقطاب هذا المذهب من ضير في أن يقحم المؤرخ نزعته الذاتيّة أو اتجاهه الفكري أو الديني أو السياسي، في تفسير الأحداث وتعليلها، والحكم على أبطالها!، بل إنهم يرون أن هذا هو واجب المؤرخ، لا مجرد وصف الأخبار، وتجميع الوقائع العارية!

ونحن وإن كنا لسنا بصدد الحديث عن المذاهب التاريخيّة ونقدها، فإن علينا ألا نخفي أسفنا أن يجد هذا المذهب ـ في عصر العلم والاعتزاز به وبمنهجيّته ـ دعاة إليه، ومؤمنين به، ذلك لأن هذا المذهب كفيل أن يمزق جميع الحقائق والأحداث التي يحتضنها الزمن في هيكله القدسي القديم الماثل أمام الأجيال، بفعل أخيلة التوسم، وشهوة الذات، وعصبيّة النفس والهوى، وكم من حقيقة مسخت، وأحداث نكّست، وأمجاد دثرت، وبرءاء ظلموا، تحت سلطان هذه المحكمة الوهميّة الجائرة!

فهل كان لهذا المذهب الجديد من تأثير على كتابة السيرة وطريقة تحليلها؟

---

(١) فقه السيرة: دكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ٢٣ وما بعدها بتصرف، دار الفكر، ط. سابعة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٥. مدرسة جديدة:

الحقيقة أن هذا المذهب الجديد في كتابة التاريخ قد أصبح أساساً لمدرسة جديدة في دراسة السيرة النبويّة وفهمها عند طائفة من الباحثين، فكيف نشأت هذه المدرسة؟ وما هي عوامل نشأتها؟ وما مصيرها اليوم؟

تعود نشأة هذه المدرسة إلى أيام الاحتلال البريطاني لمصر، حيث كانت آنذاك منبر العالم الإسلامي كما نعلم، يعنو إليه بتفكيره وعقله كلما أراد أن يعلم عن الإسلام علماً، كما يعنو إلى كعبة الله بوجهه كلما أراد حجاً أو صلاة!

وكان في استمرار هذا الصوت العظيم من جانب، وفي استمرار إنصات العالم الإسلامي إليه من جانب آخر، ما لا يدع للاحتلال البريطاني فرصة هدوء واستقرار، ومهما أخضعت بريطانيا لنفسها الوادي كله تحت سلطان من قوة الحديد والنار، فإنه خضوع موقوت لا يُطمأن إليه، ما بقيت للأزهر الشريف هذه القيادة الحيّة!

وكان الاعتماد على نقطة ضعف أليمة، كانت تعاني منها مشاعر الأمة الإسلاميّة عامة، بما فيها مصر وغيرها، وهي إحساس المسلمين بما انتابهم من الضيعة والتخلف والشتات، إلى جانب ملاحظتهم للنهضة العجيبة التي نهضها الغرب في شتى المجالات الفكريّة والعلميّة والحضاريّة!

وقد كان المسلمون يتطلّعون ولا ريب إلى اليوم الذي يتحرّرون فيه من الأثقال التي خلفتهم إلى الوراء، ليشتركوا مع الآخرين في رحلة الحضارة والمدنية والعلم الحديث!

من هذا السبيل تسلّل الهمس، بل الكيد الاستعماري إلى صدور بعض من قادة الفكر، ولقد كان مؤدى هذا الهمس أن الغرب لم يتحرر من أغلاله، إلا يوم أخضع الدين لمقاييس العلم!، فالدين شيء، والعلم شيء آخر، ولا يتم التوفيق بينهما إلا بإخضاع الأول للثاني!، وإذا كان العالم الإسلامي حريصاً حقّاً على

مثل هذا التحرر فلا مناص له من أن يسلك الطريق ذاته، وأن يفهم الإسلام هنا كما فهم الغرب النصرانيّة هناك، ولا يتحقق ذلك إلا بتخلص الفكر الإسلامي من سائر الغيبيّات التي لا تفهم، ولا تخضع لمقاييس العلم الحديث!

وسرعان ما خضع لهذا الهمس، أولئك الذين انبهرت أبصارهم بمظاهر النهضة الأوروبيّة الحديثة، ممن لم تترسخ حقائق الإيمان بالله في قلوبهم، ولا تجلت حقائق العلم الحديث وضوابطه في عقولهم، فتنادوا فيما بينهم إلى التحرر من كل عقيدة غيبيّة لم تصل إليها اكتشافات العلم الحديث، ولم تدخل تحت سلطان التجربة والمشاهدة الإنسانيّة!

فكان أن قاموا بما عرف بعد باسم الإصلاح الديني، واقتضى منهم ذلك أموراً عديدة، منها تطوير كتابة السيرة وفهمها، واعتماد منهج جديد في تحليلها، يتفق وما استهدفوه من الإعراض عن كل ما يدخل في نطاق الغيبيّات والخوارق التي لا يقف العلم الحديث منها موقف فهم أو قول!

ولقد كان لهم في الطريقة الذاتيّة في كتابة التاريخ خير ملجأ يعينهم على تحقيق ما قصدوا إليه، وبدأت تظهر كتب في السيرة النبويّة، تستبدل بميزان الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه، طريقة الاستنتاج الشخصي، وميزان الرضا النفسي، ومنهج التوسم الذي لا يضبطه شيء إلا دوافع الرغبة، وكوامن الأغراض والمذاهب التي يضمرها المؤلف!

٦ـ الإيمان بالغيب:

وإذا كانت هذه المدرسة الجديدة في كتابة السيرة قد استبدلت بقواعد التحديث رواية ودراية، منهجاً يتفق وما استهدف من الإعراض عن كل ما يدخل في نطاق الغيبيات، فإن هذا يتعارض مع السمة الأولى من سمات المتقين:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ